

الباب السادس
تدوين الشعر

الفصل الأول الكتابة في صدر الإسلام

أبيات نصر بن حجاج

رغم ضحالة الدلائل التي تشير إلى استعمال الكتابة في تدوين الشعر في صدر الإسلام، فإن استعمال الكتابة في تدوين الشعر في صدر الإسلام، واضح كل الوضوح، فهذا نصر بن حجاج يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأبيات منها:

لَعَمْرِي لَيْسَ سَيَّرْتَنِي أَوْ حَرَمْتَنِي وَمَا نِلْتِ مِنْ عِزِّضِي عَلَيْكَ حَرَامٌ
فَأَضْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَكْتَبَيْنِ مَقَامٌ
إِنْ عَنَّتِ الدُّلْفَاءُ يَوْمًا بِمُنْيَةٍ وَيَغْضُ أَمَانِي النِّسَاءِ عَرَامٌ
ظَنَنْتُ بِي الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ بَقَاءٌ وَمَالِي جُزْمَةٌ فَأَلَامٌ

وقد تبين لنا استعمال الكتابة في جلاء منقطع النظر، في العبارات التالية، عندما نادى والي البصرة من قبل عمر بن الخطاب:

«من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر...» وذكر الأبيات ثم العبارة «فلما قرأ عمر الكتاب...»^(١).

(١) السفاريني، غذاء الألباب، ج١، ص ١٧٤ - ١٧٥؛ وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج١، ص ١٤٧ - ١٤٨. وانظر الخبر أيضاً في: العسكري، الأوائل، مج ١، ص ٢٣٠ - ٢٣١. ومن ذلك الموقف في زمن معاوية مع قصيدة حسان بن ثابت التي يقول فيها:

الغموض الذي يحيط بالكتابة في أوائل العصر الأموي

أبيات أبي العيال

ولكن يجب التأكيد هنا على أن كتابة الشعر كانت موجزة، ومحدودة للغاية، وعلى نمط أبيات نصر تلك. وإذا وضعنا في تصورنا التطور السريع الذي حصل لتعليم الكتابة، نجد أن كتابة الشعر، أخذت طريقها في المواقف الرسمية أيضاً، مثل موقف أبي العيال، حينما كتب لمعاوية، وهو محصور وأصحاب له في أرض الروم، أبياتاً منها:

مِنْ أَبِي الْعِيَالِ أَحْيَى هَذَا نَبِيْلٍ فَاسْمَعُوا قَوْلِي وَلَا تَتَجَمَّعُوا مَا أُرْسِلُ
أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بَنَ صَخْرٍ آيَةً يَهْوِي إِلَيْهِ بِهَا الْبَرِيدُ الْأَعْجَلُ
وَالْمَرْءَ عَمراً فَأَتِيهِ بِصَحِيفَةٍ مِنِّي يَلُوحُ بِهَا كِتَابٌ مُنْمَلُ
وَالِي ابْنِ سَعْدٍ إِنْ أُؤَخِّرَهُ فَقَدْ أُرزَى بِنَا فِي قَسْمِهِ إِذْ يَنْغِدُ
فِي الْقَسْمِ يَوْمَ الْقَسْمِ ثُمَّ تَرَكَتُهُ إِكْرَامَهُ وَلَقَدْ أَرَى مَا يَفْعَلُ
وَالِي أَوْلِي الْأَخْلَامِ حَيْثُ لَقِيتُهُمْ أَهْلَ الْبَقِيَّةِ وَالْكِتَابِ الْمُنزَلِ^(١)

= حَارِبُ بْنُ كَعْبٍ أَلَا الْأَخْلَامُ تَزْجُرُكُمْ عَنِّي وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَاحِيرِ
وقوله للحارث بن معاذ: «أكتبها صكوكا وألقها إلى غلمان الكتاب». ديوانه ج ١ ص ٢١٩، وطلب طلحة رضي الله عنه كتابة قصيدة أعجب بها. الزمخشري، الفائق ج ١ ص ٦٧٧. وانظر تدوين الأنصار، لما كان بينهم وبين المشركين من قريش، الأغاني، ج ٤، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

(١) السكري، شرح أشعار الهدليين، ج ١، ص ٤٣٣، المنمل: المتقارب الخط. وقد ذكر السكري: «فكتب إلى معاوية بكتاب، فقرأه على الناس، فقال»، ثم ذكر الأبيات، وعدتها ستة عشر بيتاً. وانظر خبر الرسالة التي كتبها رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يشكو إليه من رجل يختلف إلى النساء الغائب أزواجهن، وضمنها بيتين من الشعر، الزبيدي، التاج، عقل. وانظر خبر الرسالتين المتبادلتين بين سعد بن أبي وقاص وعمر بن الخطاب، وتضمنين رسالة سعد أبياتاً لبشر بن ربيعة الخثعمي وعمرو بن معد يكرب؛ الأغاني، ج ١٥، ص ص ١٨٩ - ١٩٠. وكذلك الأبيات التي ضمنها كل من مروان بن

ورغم قبولنا لهذه الأقوال، على أنها شاهد على كتابة الشعر في صدر الإسلام حتى بدايات العصر الأموي، فإننا نرى أن كثيراً من هذه الأقوال يمكن تفسيرها على أنها لا تخرج في مجملها عن الفهم السابق لمعاني «كتب»، أي: أرسل قولاً شفوياً، إلا ما نُص صراحة على استعمال الكتابة فيه، لدواعي ظروف الكتابة آنذاك، ولعل مثال ذلك، الأبيات التي كتبها حسان بن ثابت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بشأن تَنَكَّر خالد بن الوليد للأَنْصار، عندما فتح اليمامة. ومما يرجح ما نذهب إليه في عدم استخدام الكتابة في الشعر في الفترة الجاهلية على الأقل، أن الشعر، رغم كتابته في العصر المتأخر، فقد ظل غير مشكول حتى بدأ الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) في ضبطه. يقول أبو عمرو الداني:

«قال أبو عمرو (يعني نفسه): وترك استعمال شكل الشعر، وهو الشكل الذي في الكتب الذي اخترعه الخليل»^(١). وهذا نص صريح على أن الشعر المكتوب، هو الشعر في كتب العلماء، حيث دلهم الخليل بعد ذلك على استعمال الضمة والكسرة والفتحة؛ وهذا يعني من طرف آخر أن الشعر الذي طلب جرير تدوينه، أو كتب بعضه في العصر الأموي، لم يكن مشكولاً، مع تكرار التأكيد على وضع الكتابة في هذا العصر.

= الحكم ومعاوية رسالتهما بشأن رجل من عذرة وزوجه، النويري، نهاية الأرب، ج٢، ص ١٥٧ - ١٥٨. وكذلك الأبيات المتبادلة بين البختري والمهلب بن أبي صفرة؛ القالي، الأمالي، ج٢، ص ٣٤٧ - ٣٤٨، والأبيات التي كتب بها أحد بني عجل لابنة عمه ورددها عليه، المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٥ - ٣٦. وانظر الأبيات المتبادلة كتابة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية في حرب صفين المنقري، وقعة صفين، ص ٦٢ - ٦٦.

(١) ديوانه، ج١، ص ٤٥٩.

(٢) الداني، المحكم في نطق المصاحف، ص ٧.

بدء وضوح الصورة في استخدام الكتابة في الشعر في أوائل العصر
الأموي

وتأخذ صورة الكتابة في الإسلام تتضح شيئاً فشيئاً، بعد أن
انتشرت الكتابة، ولم تعد مقصورة على عدد من الناس، وبعد أن
تهيأت وسائل الكتابة نفسها. ومن أدلة ذلك ما قاله يحيى بن نوفل
اليمني في أبان بن الوليد البجلي كاتب ديوان الضياع زمن الحجاج:

أَبْعَدَ الدَّوَاةَ وَيَغْدَ الطُّرُوسَ وَيَغْدَ انْكِبَابَ عَلَى الدَّفْتَرِ^(١)
بَلْ عَيْرَ الْفَرَزْدَقِ الْحَجَّاجِ كَوْنَهُ مُعَلِّماً فِي قَوْلِهِ:

زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمُقْرَبُ بِذَلِكَ يُرَاوِحُ صِبْيَانَ الْقُرَى وَيَغَادِي^(٢)
ورغم أن هذا يدل على أن الكتابة أصبحت شائعة، توافرت
فيها أدواتها، ولم تعد مقصورة على عدد محدود من الناس؛ فإنه
يدل، من ناحية أخرى، على نظرة البدوي الدوثية لصناعة الكتابة
في هذا الزمن المتأخر. فلقد كانت الكتابة، على العموم، صناعة
من الصناعات، والصناعة مذمومة عند العرب^(٣)، ومن هنا وجدنا
ابن ميادة، أو ملححة الجرهمي، ينسب الكتابة إلى كُتَّابِ مَلِكٍ مِنْ
مَلُوكِ الْأَعَاجِمِ فِي قَوْلِهِ، مُشِيرًا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ إِلَى اسْوَدَادِ لَوْنِ
الكتابة:

كَأَنَّ قُرَادِي زَوْرَهُ طَبَعَتْهُمَا بِطَيْبٍ مِنَ الْجَوْلَانِ كُتَّابِ أَعْجَمِ^(٤)
وتبلغ درجة الاحتقار لهذه الصناعة في قول جرير:

-
- (١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص ٧٤٢.
(٢) المرزوقي، شرح ديوان، الحماسة، ج٢، ص ٦٧٩.
(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، «ذم أخلاق الكتاب»، ص ٢٠٠.
(٤) اللسان، «عجم». وانظر: المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج٤، ص ١٧٤٩.
قرادي زوره: حلمتا الشدين، زوره: صدره. الطبع: الختم.

إِذَا نَزَعُوا الْإِرَارَ عَنِ انْتِيهَا هَدِي دَوَاةٌ مُعَلِّمِ الْكُتَّابِ^(١)

ومع ذلك، يبدو أن انتشار الكتابة، كان أيضاً مقصوداً على الحالات الرسمية والبيئات الحضرية. أما في البادية، فإن انتشار التعليم بها - كما هو متصور - لم يكن سريعاً - ولا بد أن الرواية كانت هي المصدر الرئيس لنقل الشعر، كما كانت الحال قبل الإسلام.

فلقد ظل الشعراء يصطحبون رواة، كما كان يفعل سابقوهم، فهذا الفرزدق. له رواية منهم: عمرو بن عفرى الضبي^(٢)، وذو الرمة له رواية: هو عصمة^(٣)، وجريير له روايته: هو أبو الحسين^(٤).

تدوين الشعر في أواخر العصر الأموي

ومع هذا، فربما دُونَ بعض الشعر في هذا العصر، غير أن ذلك تم في حدود ضيقة جداً، فقد عُثِرَ في سنة ٨٣ هـ، في قصر، في مفازة كerman، على «كتاب» كتبه بعض أهل الكوفة من شعر أبي جلدة الشكري، وهي قصيدة طويلة:

أَبَا لَهْفًا وَيَا حُرْنَا جَمِيعًا وَيَا حَرَّ الْفُؤَادِ لِمَا لَقِينَا
تَرَكْنَا الدِّينَ وَالْدُنْيَا جَمِيعًا وَأَسْلَمْنَا الْحَلَالِ وَالْبَيْتَا
فَمَا كُنَّا أَنْسَاءَ أَهْلِ دِينٍ فَتَضَيَّرَ فِي الْبَلَاءِ إِذَا ابْتُلِينَا
وَمَا كُنَّا أَنْسَاءَ أَهْلِ دُنْيَا فَنَمْنَعَهَا وَلَوْ لَمْ نَزُجْ دِينَا
تَرَكْنَا دُورَنَا لِطَغَامِ عَاكَ وَأَنْبَاطِ الْقُرَى وَالْأَشْمَرِينَا^(٥)

وكما يدل الخبر، فالكتاب: هو قصيدة طويلة، إذ إن المقصود

(١) دايونه، ص ٨١.

(٢) ابن سلام، طبقات، ص ٢٧٢.

(٣) المرزباني، الموشح، ص ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

بالكتاب: هو ذلك الشعر، وليس مجموع أشعار، والقصيدة التي يقال: إنها طويلة، هي تحديداً خمسة أبيات فقط. وهو المصدر الذي رواه به أبو الفرج أيضاً^(١).

وذكر أبو الفرج في رواية أخرى، أن أبا جلدة كتب أبياتاً تسعة للقعقاع بن سويد، والي سجستان، وكان القعقاع قد استعمل أبا جلدة على بست والرخج، من أعمال سجستان، وقال:

«فلما انتهت هذه القصيدة إلى القعقاع، وجه برسوله إلى أبي جلدة، وقال: انظروا فإن كتب هذا الكتاب بالغداة، فاعزله، وإن كان كتبه بالليل، فأقرره»^(٢).

وهذا جلي على استعمال الكتابة. وسواء أترك أبو جلدة كتاباً، بمعنى قصيدة، أو بمعنى عدد محدود من القصائد، فإن القرائن كلها تشير إلى التدوين والكتابة معاً. ولقد ذُكِرَ أن صِهْرَ كُثِيرٍ، زوج ابنته، كان يحتفظ بشعر كثير (ت ١٠٥هـ) مكتوباً^(٣).

الفرزدق

ثم إنه لما تأخر الزمن قليلاً، وجدنا ذكراً أكثر صراحة لاستعمال الكتابة في الشعر، فهذا الفرزدق، الذي كان المفضل أبو شقفل

(١) الأغاني، ج ١١، ص ٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١.

أما قول ليلى الأخيلية (ت ٨٥هـ):

أُنَابِي مِنَ الْأَنْبَاءِ أَنْ عَشِيرَةٌ
بِشُورَانٍ يُزْجُونَ الْمَطِيَّ الْمُدَّلَا
يَرْوِّحُ وَيَسْخَدُو وَفَدَهُمْ بِصَحِيفَةٍ
لَيْسَتْ جِلْدُونِي سَاءَ ذَلِكَ مَغَمَلَا

فإنه لا يدل على أن الصحيفة كانت تتضمن شعراً يستشهد به على هجاء الأخيلية، فهي لم تكتب ذلك الشعر، وإنما قالت، فروته الرواة عنها، والمهجوون يروونه أيضاً. وإنما أرادت أن ذلك الوفد كتب «عريضة» يشكو الأخيلية فيها إلى الأمير. انظر بلاشير، تاريخ الشعر العربي، ص ١١٤.

روايته، وفي الوقت نفسه كاتبه، يخلو به ليلاً ليكتب أشعاره^(١). وكان
راويته، ابن مَتَسَوِيَه (ومن اسمه يتضح أنه غير عربي)، يكتب شعره
أيضاً^(٢).

وتثبت قصيدته الفائية:

عَرَفْتُ بِأَعْسَاشٍ وَمَا كُنْتُ تَعْرِفُ وَأَنْكَرْتُ مِنْ حَذَرَاءِ مَا كُنْتُ تَعْرِفُ

التي تبلغ ١١٣ بيتاً، والتي نظمها في جلسة واحدة بعد طلوع
الفجر^(٣)، أن القول الشفهي، وليس النظم مع الاستعانة بآلات الكتابة،
هو أساس الفن الشعري حتى ذلك العهد. وقد كان للفرزدق راويتان
آخران من بني ربيعة بن مالك، ومن تميم، أحدهما يقال له:
عبيد^(٤)، ولعلمهما كانا يرويان شعره حفظاً.

جرير

ويبرهن قول قصيدته الدامغة على طريقة قول الشعر وكتابته في
هذا العصر أيضاً، حيث يروى أن جريراً أقبل على راويته الحسين،
فقال: زد في دهن سراجك الليلة، واعدد ألواحاً ودواة». وقد قال
٨٠ بيتاً من هذه القصيدة البالغة ١١٢ بيتاً في تلك الليلة^(٥).

وفي رواية أخرى حول القصيدة نفسها، يُروى عن مولى لبني

(١) ديوانه، ج١، ص ٢٩٤.

(٢) أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ج٢، ص ٩٠٨. وانظر خبر كتابته أبياتاً
أخرى له، ديوان الفرزدق، ج١، ص ١٦١. وانظر كذلك خبر كتابته أبياتاً له
أرسلها إلى سعيد بن الوليد الأبرش، الأغاني، ج١١، ص ٢٥٩.

(٣) أبو عبيدة، النقائض...، ج٢، ص ٥٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤٩. وانظر ديوان جرير، ص ٦٤ - ٨٠. المرزباني،
الموشح، ص ٩٧.

(٥) أبو عبيدة، النقائض، ج١، ص ٤٣٠ - ٤٣٢. وانظر ديوان جرير،
ص ٤٧٢ - ٤٧، والقصيدة فيه ٧٢ بيتاً.

كليب بن يربوع، كان يبيع الرطب بالبصرة، قوله:

«كنت أجمع شعر جرير، وأشتهي أن أحفظه وأرويه. فجاءني ليلة فقال: إن راعي الإبل قد هجانني، وإني آتيتك الليلة... فلما أعتم، جاءني، فقال: ... هات دواة وكتفأ، فأتيته بهما، فجعل يملئ علي قوله:

أُقَلِّي اللُّؤْمَ عَادِلَ وَالْمِثَابَا وَتُقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا
حَتَّى بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ:

فَقُضُّ الطَّرْفَ إِثْنَكِ مِنْ نَمِيرٍ

فجعل يردده، ولا يزيد عليه، حتى حملتني عيني، فضربت بدقني صدري نائماً، فإذا به قد وثب، حتى أصاب السقف رأسه، وكبر، ثم صاح: أخزيت، والله! اكتب:

فَلَا كَتَبْنَا بَلَّغْتُ وَلَا كِلَابَا^(١)

ولقد بلغ من حرص جرير على التدوين، أن عدًا صباحاً إلى المرید، بعد قوله قصيدته الدامغة من ليته، فقال: يا بني تيم! قِيدُوا قِيدُوا أي: اكتبوا^(٢). وذلك رغم أن راويته الحسين كان يكتب عنه.

وهذا أبو عمرو بن العلاء يقول: «كنت قاعداً عند جرير وهو

يملئ:

وَدَعُ أَمَامَةً حَانَ مِنْكَ رَجِيلُ إِنْ أَلْوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ

ثم يصف الوضع قائلاً: «فمرت به جنازة، فترك الإنشاد»^(٣).

(١) الأغاني، ج٨، ص ٣٠. أعتم: دخل في العتمة.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مج ١، ص ٤٦٦.

(٣) المرزباني، الموشح، ص ٣٧٤.

وتبين هذه الروايات حرص جرير على تدوين شعره، حتى إنه كان قد أملى على غلام قصيدة، كتبها على عظم كتف^(١).

وإذا كانت أدوات الكتابة التي مرت في روايات كتابة جرير السابقة ألواحاً، فمن المستغرب هنا أن تُملى قصيدة على عظم كتف، ولعل المقصود عظام أكتاف، إلا أن تكون القصيدة آياتاً محدودة.

ويثبت خالد بن كلثوم الكلبي أهمية الكتابة والرواية على حد سواء للشاعرين الكبيرين: الفرزدق وجرير كليهما، فيقول:

«مررت بالفرزدق، وقد دوت من شعره وشعر جرير... فقال:
يا خالد... تكتب نقائضها، أو تحفظها وتنشديها، فقال: أفعل؛
فلزمته شهراً، حتى حفظت نقائضها، وأنشدته إياها»^(٢).

عمر بن لجأ (ت ١٠٥ هـ)

ثم هؤلاء فتیان من بني عدي يحيطون بالشاعر عمر بن لجأ،
فيكتبون فخره بالرباب^(٣).

وهذا ذو الرمة يقول لعيسى بن عمر:

«اكتب شعري، فالكتاب أعجب إلي من الحفظ. إن الأعرابي
لينسى الكلمة، قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع موضعها كلمة في
وزنها، لا تساويها»^(٤).

أدرك ذو الرمة، كما أدرك جرير، فيما بعد، أهمية الكتابة،
فحرصاً على التدوين. ومن ناحية أخرى، فإن هاتين الحاليتين: حالة
ذي الرمة وحالة جرير، تثبتان أهمية شاعرين، عاشا في فترة أخذت فيها

(١) الأغاني، ج٨، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢١، ص ٣٢١.

(٣) أبو عبيدة، نقائض، ج٢، ص ٩٠٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٣٦.

الكتابة في الانتشار، ووصل الشعر على يديهما، وفي زمنهما، إلى درجة عالية من الإحكام والتفنن؛ ولعلنا نستنتج من ذلك أن استعمال الكتابة لتدوين الشعر في هذه الفترة، يثبت من طرف آخر، استبعاد أن يكون الشعر الجاهلي قد دون في زمانه.

عدي بن الرقاع بين التطور والتقليد

وإذا ما أخذنا في الاعتبار تلك النقلة الحضارية التي تمت في أيام بني أمية، وبخاصة في عهد الوليد بن يزيد، ومن جاء بعده، فليس بمستغرب، بعد ذلك، أن يتفنن الشعراء البدو في نقل صور حضارية تخصص الخط والكتابة، ولعل أشهر مثال على ذلك، قول عدي بن الرقاع، يصف ولد ظبية مع أمه:

نُزَجِي أَغْنُ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا^(١)

فعدي، رغم هذه الصورة الخالدة للخط، يظل مصوراً لها، غير مستعمل لأدواتها، مما يثبت أنه أعرابي، مثله مثل من سبقه.

المقنع الكندي

يزداد تأكيد ذلك النقل شدة عند شاعر آخر، ووصف الخط وصفاً بالغ الروعة والإتقان، وربما كان يعرف شيئاً منه، فقال المقنع الكندي:

كَالْحَطِّ فِي كُتُبِ الْغُلَامِ أَجَادُهُ بِمِدَادِهِ وَأَسَدٌ مِنْ أَقْلَامِهِ
قَلَمٌ كَحَرْطُومِ الْحَمَامَةِ مَائِلٌ مَسْتَحْفِظٌ لِلْعِلْمِ مِنْ عَلَامِهِ
يَسِمُ الْحُرُوفَ إِذَا بِنَاءِهَا لِبَيَانِهَا بِالنُّقْطِ مِنْ أَرْسَامِهِ
مِنْ صُوفِيَةِ نَفْتِ الْمِدَادِ سُخَامُهُ حَتَّى تَغْبِرَ لَوْنُهَا بِسُخَامِهِ

(١) ديوانه، ص ٨٥. تزجي: تدفعه قُدماً، ليمشي من صغره وضعفه. أغن: أي هو صغير ضعيف الصوت. إبرة روقه: حدة الروق، والروق: القرن.

يَخْفَى فَيَقْصَمُ مِنْ شَعْبِرَةِ أَنْفِهِ كَقَلَامَةِ الْأَظْفُورِ مِنْ قَلَامِهِ
 وَيَأْتِيهِ شَقٌّ تَلَاءَمٌ فَاسْتَوَى سُقْبِي الْمِدَادَ فَرَاذَ فِي تَلَامِهِ
 مُسْتَفْجِمٌ وَهُوَ الْقَصِيحُ بِكُلِّ مَا نَطَقَ اللِّسَانُ بِهِ عَلَى اسْتِفْجَامِهِ
 وَلَهُ تَرَاجِمَةٌ بِالسِّنَةِ لَهُمْ تَبْيَانٌ مَا يَشْلُونَ مِنْ تَرْجَامِهِ
 مَا خَطَّ مِنْ شَيْءٍ بِهِ كَتَسَى بِهِ مَا إِنْ يَبُوحُ بِهِ عَلَى اسْتِكْتَامِهِ
 وَهَجَاؤُهُ قَافٌ وَلَا مَ بَعْدَهُ مِيمٌ مُعَلَّقَةٌ بِأَسْفَلِ لَامِهِ^(١)

فهذه الصورة الدقيقة للخط، التي قد شعرنا بأن المقنع ممن مارس الكتابة، لا تختلف في أصلها عن قول لبيد، الذي مر بنا: «.. يجدها وليد يمان». فالمقنع، الذي تحرر من بعض القيود الفنية في هذا العصر، إنما يصف الكتابة وصفاً، فالكاتب ليس هو، بل «غلام»، ومن ثم راح يدقق في الصورة، ويلتقط جزئياتها، وما ذلك إلا ليصل إلى وصف قصيدته في الوليد بن يزيد (١٢٥هـ - ١٢٦هـ)، في قوله:

أَهْدَى الْمُقْنَعُ لِلْوَلِيدِ قَصِيدَةً كَالسَّيْفِ أَزْهَفَ حَدَّهُ بِحُسَامِهِ

ويدل بيته الأخير: «وهجاؤه قاف ولا م..»، على أن المقنع الكندي كان يعرف رسم الكلمات، وليس ذلك بمستغرب في ذلك العصر المتأخر؛ فقد تجاوز المقنع مرحلة الأمية التامة؛ فهذا ابن أحمر، الشاعر المخضرم، يصف شكل النون، غير أن هذا الوصف لم يتعد النقل، كما فعل ذو الرمة؛ وعدي ابن الرقاع، في وصفه القلم، ربما كان ينقل صورة كُتَّاب الدولة في عصره، لا سيما أولئك الذين يتولون الترجمة، كما قال: «وله تراجمة بالسنة لهم...». يقول ابن أحمر:

(١) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ٦٥ - ٦٦.

يخفى: أي يرق سنه، فيتعث في الكتابة. استعجم: سكت.

وَحَاجِبٍ كَالنُّونِ فِيهِ بَسْطَةٌ أَجَادَةُ الْكَاتِبِ خَطًّا بِالْقَلَمِ^(١)
فشكلُ النونِ لديه معروف، إلا أن كاتبه ليس هو ابن أحمر،
وإنما كاتب آخر غيره: «الكاتب».

(١) شعره، ١٤٦.

الفصل الثالث

معرفة ذي الرمة الكتابة

أُمِيَّةُ ذِي الرِّمَّةِ

وإذا كان هناك من يتشبهت بمعرفة ذي الرمة بالكتابة، إتكاء على بعض الروايات التي أوردوها^(١)، فإننا نرى أن هذه الروايات على النقيض من ذلك تماماً، لا تثبت تلك الفكرة، وإن كنا نتبين منها شيئاً مهماً جداً، وهو أن التعليم لم يقتصر على الحاضرة، بل ابتداءً يزحف على البادية؛ وما زلنا نُدرج ذا الرمة ضمن الشعراء الأميين من أبناء قبيلة تميم، فجير أمي، والفرزدق أمي، وذو الرمة أمي كذلك. وتُبين الحادثة التي رواها القالي، الجانين السابقين كليهما: الأمية والتعليم في البادية، يقول:

«قيل لذي الرمة: من أين عرفت الميم، لولا صدف من سنك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتاف الإبل؟ فقال: والله! ما عرفت الميم، إلا أنني قدمت من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان، وهم يجوزون بالفجرم في الأوق، فوقفت حيالهم أنظر إليهم، فقال غلام من الغلطة: قد أزقتم هذه الأوق، فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغلطة، فوضع منجمة في الأوق، فنجنجه، فأفقهها، فعلمت أن الميم شيء ضيق، فشبهت عين ناقتي به، وقد اسلهمت وأعيت»^(٢).

(١) الأسد، مصادر...، ص ١١٧ - ١١٨؛ يوسف خليف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) القالي، الأمالي، ج٢، ص ٤. الفجرم: التجوز الأوق: الحفرة. أزقتم: ضيقتهم. نَجَنَجَه: حركه. أفقها: ملأها؛ المنجم: القوب. اسلهمت: تغيرت.

ويؤكد قسمه: «والله! ما عرفت الميم»، صدقه في عدم معرفته
الكتابة.

صدقه في عدم معرفته الكتابة

ولجلاء هذه النقطة جلاء يكشف عن حقيقتها، نورد بعض
الروايات التي تدعم أمية ذي الرمة؛ فيعسى بن عمر (ت ١٥٠هـ) يورد
ما دار بينهما من حديث، فيقول:

«ارفع هذا الحرف. فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده على فمه،
أي: اكتبم علي! فإنه عندنا عيب»^(١). ويقول: «قال لي ذو الرمة، أنت
والله أعجب إلي من هؤلاء الأعراب! أنت تكتب، وتؤدي ما تسمع،
وهؤلاء يهون على أحدهم - وقد نَحْنُ من جبل - أن يجيء به على
غير وجهه، قال: قلت: إني لم أحل منك بشيء، قال: كنت
مشفولاً، عد إلي. فعدت إليه، فتعايبت في شيء، فتهجأه لي،
فقلت: أراك تكتب، يا أبا الحارث! قال: إياك أن يعلم هذا أحد،
تعلمت الخط من رجل كان عندنا، أتانا بالحضر، فكان يجلس إلي من
العممة إلى أن ينكفت السامر، يخط لي في تراب البطحاء»^(٢)...

وفي رواية أخرى يقول أيضاً:

«كنت في يوم من أيامي أقرأ على ذي الرمة شيئاً من شعره،
فقال: أصْلِح هذا الحرف! فقلت: وإنك لتكتب؟ قال نعم، قدم علينا
حضري لكم، فعلمنا الخط في الرمل»^(٣).

أما رواية أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، فتقول أنه:

«رأى ذا الرمة في دكان طحان بالبصرة يكتب، فقال له: ما هذا

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٦٢

(٢) المرزباني، الموشح، ص ١٦٢

(٣) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٢٩٦.

يا ذا الرمة؟ فقال: اكتب علي، يا أبا عمرو! (١).

ولا تختلف رواية شعبة عن رواية عيسى بن عمر، يقول شعبة:

«لقيني ذو الرمة، فقلت: اكتبني بعض شعرك! فجعل يملئ علي، ويطلع في الكتاب، فيقول: ارفع اللام من السين، وشق الصاد، ولا تُعَوِّر الكاف! فقلت: من أين لك الكتاب؟ قال: قدم علينا رجل من الحيرة، فكان يؤدب أولادنا، وكنت آخذ بيده، فأدخله الرمل، فيعلمني الكتاب، وأنا أفعل ذلك لثلاثي تقول علي ما لم أقل» (٢).

ومن الروايات التي تدور حول معرفة ذي الرمة بحروف الكتابة، خبر حماد الراوية الذي يقول:

رواه الصولي كالتالي: «قرأ حماد الراوية علي ذي الرمة شعره، فقال: تراه قد ترك في الخط لاما... فقال ذو الرمة: اكتب لاما. فقال حماد: وإنك لتكتب؟ قال: تكتب علي! فإنه كان يأتي باديتنا خطاط، فعلمنا الحروف تخطيطاً في الرمال في الليالي المقمرة، فاستحسنتها، فثبتت في قلبي، ولم تخطها يدي» (٣).

فهذه الروايات المتعددة، لا تكشف عن أن ذا الرمة كان يكتب حقيقة، وإنما تؤكد نظرة الأعراب إلى الكتابة، والاستحياء من الاتهام بمعرفتها؛ كما تؤكد تأكيداً قوياً على أمية ذي الرمة، وأن صورة تلك الحروف هي التي انطبعت في ذهنه، ولم يمارسها عملياً. فجميع الروايات تبين أن الرجل كان يتعلم الحروف خفية حتى لا يطلع عليه أحد، فيتهمه بتعلم «الصنعة» المذمومة في نظر البدوي، كما تبين أنه حتى ذلك التعلم كان بعيداً عن أنظار الناس، تحت ضوء القمر،

(١) ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٩٦.

(٢) المرزباني، الموشح، ص١٦٢.

(٣) الصولي، أدب الكُتّاب، ص٦٢.

وعلى الرمل، حتى رسخت في ذاكرته صورة تلك الحروف. وطبيعي أن تلك الطريقة لا تَخْلُق كاتباً على أي مستوى؛ إنه مجرد استحسان، ولكنه لم يمارس الكتابة حقيقة. «لم تخطها يدي»، أي بتعبير آخر، إن مواقف ذي الرمة كانت مواقف دهشة وفرح بمعرفة تلك الحروف وأشكالها.

أما رواية أبي عمرو بن العلاء، فلا تعني أيضاً أنه كان يكتب، فهي في مدلولها تتفق مع غيرها في أن تعلم الكتابة كان عيباً لمن هم في سن ذي الرمة في مجتمعه، ثم إنها تقول: «إن ذا الرمة كان في دكان طَحَّان بالبصرة يكتب». ولنا أن نتصور مادة الكتابة في دكان الطحان؛ أليست هي الطحين المتناثر في الدكان، بحيث يشبه سطح الرمل في البادية؟ والتعبير بالكتابة عند أبي عمرو بن العلاء، هو التعبير بالكتابة عند غيره، أي إن مجرد الخط على الرمل، أو الطحين، بعض الحروف، يدفع إلى الظن بأنه معرفة بالكتابة.

إذن، فذو الرمة ينقل صورة ارتسمت في ذهنه عن الكتابة، ولم يمارسها. وما تشبيهه الذي رأيناه لعين الناقة باستدارة الميم، على ما فيه من بداوة وسذاجة، إلا كتشبيهه لأنوف الطير بحركة رؤوس الأقلام، وهي صورة أرقى ذوقاً من تلك، حيث يقول:

كَأَنَّ أَنْوْفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصَاتِهَا خَرَاطِيمُ أَقْلَامٍ تَخْطُ وَتُنْجِمُ^(١)

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن قول أبي النجم، وهو يصور اضطرابه في مشيته بمثل كتابة «لام ألف» في الاستقامة مثل الألف؛ والاعوجاج مثل اللام:

أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ زِيَادٍ كَالْحَرْفِ تَخْطُ رِجْلَايَ بِحَطِّ مُخْتَلِفِ

(١) ديوانه، ج٣، ص ١٥٨٠.

عرصاتها: جمع غرصة، وهي كل بقعة بين الدور واسعة، ليس فيها بناء.

وَتَكْتُبَانِ فِي الطَّرِيقِ لَأَمْ أَلِيفٌ^(١)

وينفي هذا، بعد ذلك، ما قاله الأصمعي من أن ذا الرمة كان:
«معلماً بالبادية، وكان يحضر اليمامة والبصرة كثيراً»^(٢).

أبو النجم

وعليه، فيجب ألا يدفعا أي من تلك الأقوال إلى الزعم أنه كان يمارس الكتابة حقاً، ذلك أن صورة الكتابة ما زالت مشوّهة في ذهنه. وما معرفة أبي النجم باللام ألف، إلا مثل معرفة جرير والراعي بالكاف والميم اللتين مرتا بنا، والفرق هو أن أبا النجم قد يكون نقل الصورة من مشاهداته اليومية في هذا العصر الذي ذاعت فيه الكتابة، أما جرير وغيره، فكانوا متأثرين بالتقليد الماضي. وهو أمر يجب أن نحسب حسابه، لاختلاف طريقة شعراء القصيدة عن شعراء الرجز.

وشبيهه بقول أبي النجم، قول الآخر يصف غراباً، ويشبهه بجندي، وتبقى صورة الكتابة عنده شبيهة بالطارق في الرمل:

يَقْلُرُ فِيهَا مِقْلُرُ الْحَجُولِ بَغِيّاً عَلَى سَائِيهِ كَالْمَشْكُولِ
بِخَطِّ لَامِ أَلِفِ مَوْصُولِ وَالزَّيْ وَالرَّأْيَمَاتِ هَلِيلِ
خَطِّ يَدِ الْمَسْتَطْرِقِ الْمَشْلُولِ^(٣)

ونحن إذ نرفض أن يكون ذو الرمة، أو أبو النجم، قد مارسا الكتاب، نرفض أيضاً أن يكون النبي ﷺ كان يعرفها، فالنبي ﷺ أمي

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص ٦٢. زياد: صديق له كان يسقيه، فينصرف من عنده ثملاً كالخرف الذي فسد عقله لكبره.

(٢) المرزباني، الموشح، ص ١٥٦.

(٣) البغدادي، الخزائن، ج ١، ١١٧. وانظر، أبا زيد، النوادر، ص ٦٧. الحجلان: مشية المقيد كالْحَجَلِ إذا نزل في مشيه. المقلز: من قلز الغراب، إذا تعارج في مشيه. البغي: المرح والخيلاء. المشكول: الذي في رجله شكال، وهو قيد المستطرق: الكاهن الذي يطرق الحصى بعضه ببعض.

تشهد على ذلك سيرته ورسالته. ولنا أن نفسر ما رُوي عن توجيهاته لبعض الكتاب، بأنها - إن صحت - ملاحظات عابرة عن صور انطبعت في الذهن، وليست حقيقة على الإطلاق^(١). قال أصدق القائلين: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا أَلْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الخط بمعنى الأثر

إن ما ينبغي أن نلتفت إليه، هو أن تكرار استعمال لفظه «خط»، لا يعني الخط كتابة، وإنما يعني رسم خط من الخطوط، يقول ذو الرمة:

أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أَعِيدُهُ بِكَفِّي وَالْغِرْبَانُ فِي الدَّارِ وَقَعٌ^(٢)
أي أعمل رسماً في الرمل على شكل خط. وقال الآخر:

بِهَا ضَرَبُ أَذْنَابِ الْعِظَاءِ كَأَنَّهَا مَلَاعِبُ وَلِدَانٍ تَخْطُ وَتَمْصَعُ^(٣)

وهذا تصوير مطابق للحركة المرسومة، فأثار العطاء ومزاحفها في الرمال، تشبه خط الصبغة الصغار، وهم يلعبون في الرمال كذلك، ذاهبة خطوطهم هنا وهناك في غير انتظام مقصود. وإن هذه الصور لا تختلف عن قول الطرماح في تشبيه حركات الثور الوحشي تحت الأرتاة:

فَأَضْبَحَ مَخْبُورًا تَخْطُ ظُلُوفُهُ كَمَا اخْتَلَفَتْ بِالطَّرْقِ أَيْدِي الْكَوَاهِنِ^(٤)

(١) الهوريني، المطالع النصرية، ص ١٤ - ١٦ وانظر نقل مثل ذلك الأدعاء، ثم الرد عليه، في إسحاق، ماذا حول أمية الرسول ﷺ، ص ٢٤ - ٢٦، ٤٣ - ٥٥. وانظر آل بن علي، الرد الشافي...، ص ٦٩. إلخ.

(٢) دابونه، ج٢، ص ٧٢١.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ح٤، ص ١٧٥. العطاء: جمع العطاءة؛ وهي دوية كالورل والضب، دون الحرباء حجماً. تمصع: تسرع.

(٤) ديوانه، ص ٥١٠. وانظر الأغاني، ج٧، ص ١١٥.

الفصل الرابع استمرار النمط القديم

صورة الأطلال

ومما يؤكد القول بعدم استخدام الكتابة في الشعر، أنه حتى أولئك الشعراء الإسلاميون والأمويون الذين كانت غالبيتهم من البدو، لم يمارسوا كتابة الشعر، وإنما كانوا يقولونه شفويًا؛ فإضافة إلى تلك الصور التي كانت تعكس صورة الكتابة في أذهانهم عند الأمم الأخرى، كما كانت تنعكس أمام أحفادهم، نجدهم يعيدون الصور التي ذكرناها عند بدء النقاش، كما فعل أحفادهم أيضًا. نجد ذلك عند النابغة الشيباني مثلًا، وعند جميل بثينة، والفرزدق وجرير. فمن صور النابغة الشيباني قوله:

فَهَيْجَ ذَمِّي رَسْمُ دَارِ كَأَنَّهُ وَجِي السَّلَامِ قَالِ الدُّمُوعُ بَوَادِرُ^(١)
وقوله:

أَبْلَى مَعَارِفِ أَطْلَالٍ وَعَغِيرَهَا فَكُلُّ آيَاتِهَا مَمْحُوءَةٌ طُمُسُ
نُؤْيٍ وَسُفْعٍ وَمَفْجُوجٍ وَمُلْتَبِدٍ كَأَنَّهَا كُتُبٌ عَادِيَةٌ دُرُسُ^(٢)
وقال العرجي:

(١) ديوانه، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤. النؤي: مجرى الماء حول الخباء. السفع: الأثافي. المشجوج: الوند. الملتبد: الملتصق بفضه على بعض، أي التراب.

لِمَنْ طَلَّلَ بِالتَّغْفِ نَعْفٍ وَقَيْرٍ يُشَبُّهُ مَغْنَاهُ كِتَابَ رُبُورٍ^(١)
وقال جميل:

قَفْرًا تَلُوخُ بِنْدِي اللَّجِينِ كَأَنَّهَا أَنْضَاءُ رَسْمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابٍ^(٢)
وقال الأخطل مشبهاً آثار الديار بشباب يمانية بالية ذات خطوط،
كما يشبهها بكتابة في كتب قديمة مهملة:

فَهِيَ كَسَخَقِ الِيمَانِي بَعْدَ جِدَّتِهِ أَوْ دَارِسِ الْوَحْيِي مِنْ مَرْفُوضَةِ الْكُتُبِ^(٣)
وقال أيضاً في صورة أخرى:

لِحَوْلَةٍ بِالدُّومِيِّ رَسْمٌ كَأَنَّهُ عَنِ الْحَوْلِ صُخْفٌ عَادَ فِيهِنَّ كَاتِبٌ^(٤)
كما قال ذو الرمة، مشبهاً آثار الناس في سواد الأطلال بالكتب،
وهو تأكيد على استمرار التقليد لديه:

وَدِمْنَةٌ هَيَّبَتْ شَوْقِي مَعَالِمَهَا كَأَنَّهَا بِالْهَدْمَلَاتِ الرَّوَاسِيمُ

(١) ديوانه، ص ٧٥. التغف: الأرض المرتفعة عن منحدر الوادي. وقير: جبل.

(٢) ديوانه، ص ١٧.

ومما لا شك فيه أن البيت التالي، لأحد المجهولين، مصنوع في الإسلام،
وليس جاهلياً، كما يدل عليه تركيبه:

فَأَصْبَحَتْ - بَعْدَ - حَطَّ - بَهَجْتَهَا كَأَنَّ قَفْرًا - رَسُمَهَا - قَلَمًا
أراد: فأصبحت بعد بهجتها قفراً، كأن قلما خط رسومها، ففصل بالفعل (خط)
بين المضاف الذي هو (بعد)، والمضاف إليه الذي هو (بهجتها)، وفصل أيضاً
بالفعل نفسه (خط) بين (أصبحت) وخبرها الذي هو (قفراً)، وفصل بين (كأن)
واسمها الذي هو (قلما) بأجنبيين: أحدهما، (قفراً)، والآخر (رسومها) وهو
مفعول (خط)، وهو خبر (كأن).

انظر، ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٩٣. السحق: البالي.

(٣) شعره، ج ١، ص ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٣. الدومي: موضع في ديار بني هلال. عن
الحول: بعد الحول.

والرواسيم: كتب كانت في الجاهلية^(١). ونحن نفهم هذه الكتب - في إطار التشبيه بالقديم، حسب المنظور العام للكتابة - على أنها كتب عند الأمم المشار إليها هنا، وهي على العموم، لا تخرج عن حد تشبيه الدمن بالكتاب، مثل قوله ذاكراً «الضبار» وهي الكتب:

أَقُولُ لِنَفْسِي وَأَقْفَاءَ عِنْدَ مُشْرِفٍ عَلَى عَرَصَاتِ كَالضُّبَارِ النَّوَاطِقِ^(٢)

وليس أدل على إضلال الصورة وسوادها، من قوله، مشبهاً - في صورة استعارية تبدو سابقة لأوانها - الصحارى بالمهارق، أي الصحف:

وَفَرَّقِ كَسَاهُ اللَّيْلِ كِسْرًا قَطَعْتُهُ بِتِفْمَلَةٍ بَيْنَ الدِّجَا وَالْمَهَارِقِ^(٣)

وقال الفرزدق:

عَرَفْتُ الْمَنَازِلَ مِنْ مَهْدِدِ كَوْخِي الرُّبُورِ لَدَى الْفَرَزْدِ^(٤)

وهذا الأمر ملحوظ في قول أحد الشعراء، ذاكراً علي بن

(١) الجوهري، الصحاح، ج٥، ص ١٩٣٢. وانظر ديوان ذي الرمة، ج١، ص ٣٧٦. الدمنة: آثار الناس، وما سودوا ولطخوا. معارفها: أي ما كنت تعرف من هذه الدمنة. الهدمات: جمع هدملة؛ وهي الرمال المشرفة، أي الكثبان. وفي رواية الديوان: «الرواسيم»: أي الطوايع. «رسم» ومثله قوله، ديوانه، ج٢، ص ٦٨٣: كَأَنَّ دِيَارَ الْحَيِّ بِالرُّزْقِ خِلْقَةً مِنَ الْأَرْضِ أَمْ مَكْتُوبَةٌ بِمِذَاءٍ وَقَوْلُهُ:

وَضَبِحًا صَبَيْتُهُ النَّارَ فِي ظَاهِرِ الْحَصَى كَيْسَافِيَةِ الشُّثُورِ أَوْ نَقِطِ الْحَبْرِ

ديوانه، ج٢، ص ٩٤٤. الضبح: آثار النار. صبته: غيرته. الثنوير: هو أن تضرب اللثة أو اليد بالإبرة، ثم تجعل عليه الإنميد، أو نقط الحبر.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ص ٢٤٧. وانظر: ديوان ذي الرمة، ج١، ص ٢٤٧.

(٣) ديوانه، ج١، ص ٢٥٣. الخرق: الأرض الواسعة البعيدة. الكسر: ما ينشئ على الأرض من الشفة السفلى من بيوت الشعر. البعملة: الناقة السريعة.

(٤) ديوانه، ج١، ص ١٧٢. الفرقد: ولد البقرة الوحشية، ونجم الفرقد، ولعل المقصود به هنا اسم مكان.

أصمغ، جدّ أبي الأصمعي، وكان يتولى محو المصحف المخالفة لمصحف عثمان رضي الله عنه، من قبل الحجاج:

وَالْأَرْسُومَ الدَّارِ قَفْرًا كَأَنَّهَا كِتَابٌ مَحَاهُ الْبَاهِلِيُّ بْنُ أَصْمَعَ^(١)

ويقول الراعي، في تشبيه خدي ناقته:

ثُقَلْبُ خَدَيْنِ كَالْمُضْحَفِيِّ بْنِ خَطْهُمَا وَاضِحٌ أَزْهَرُ^(٢)

وهو ملحوظ أيضاً في قول أبي وجزة السعدي (ت ١٣٠هـ):

يَا دَارَ أَسْمَاءَ قَدْ أَفْوَتْ بِأَنْشَاجٍ كَالْوُخِيِّ أَوْ كِإِمَامِ الْكَاتِبِ الْهَاجِي^(٣)

أما قول الشاعر الكاتب، الكميّ بن زيد (ت ١٢٦هـ):

حَتَّى كَأَنَّ عِرَاصَ الدَّارِ أُرْدِيَةً مِنَ الشَّجَاوِيذِ أَوْ كُرَاسُ أَسْطَارِ^(٤)

فهو، وإن كان يؤكد حقاً الاتباع وامتداد ذلك المأثور، فيجب أن نتنبه إلى تلك القفزة النوعية التي حدثت في الخط العربي، والإمكانات المتاحة للشاعر في القرن الثاني الهجري، مما لم يكن متيسراً لأولئك الشعراء القدامى، وعدي بن زيد من ضمنهم. فإضافة إلى ذكر الباهلي، والمصحف، نصادف عند الشاعر الكاتب، الطرماح، تشبيهاً للدمن برسم الآيات دقيقة في الخط، يقول:

أَهَاجِكَ بِالْمَلَادِمِ مَنْ عَوَافِي كَحَطِّ الْكَفِّ بِالْأَيِّ الْعِجَابِ^(٥)

مع أن الطرماح نفسه يقول في التصوير المألوف:

فِيهَا لَوْلَدَانِ الصُّبَا مَلْعَبٌ كَأَنَّ مَا آتَارَ أَقْدَامِهَا

(١) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ١٠٥.

(٢) شعره، ص ٢٠٨.

(٣) اللسان، «هجا».

(٤) شعره، ج ١، ص ١٨١.

(٥) ديوانه، ص ٣١٩.

صَحِيفَةً رَقْنَسَهَا كَاتِبٌ لَمْ يَتَقَادِمَ عِنْدَ أَقْلَامِهَا^(١)

وهذا يعني أن التصوير في الحالتين واحد.

أي إن الصورة الاتباعية القديمة هي هي لم تتغير، فرغم ممارسة الكتابة واستعمالها، ظل الشاعر المتعلم يعيد ملامحها العتيقة. يقول الطرماح، في تشبيه الخطوط السود في قوائم الثور الوحشي بالكتابة الحميرية:

حَتَّى إِذَا هُوَ آلٍ وَأَطْرَدَتْ لَهُ شُعَبٌ كَأَنَّ وُجِيهَهُنَّ الْمُسْنَدُ^(٢)

تأثير أهل الكتاب

التأثير اليهودي

قبل قليل مر بنا قول العرجي: «... كتاب زبور»^(٣)، وهنا يقصد بالزبور كتاباً لليمن، والذي يقصد به كتاباً لليهود. كما نجد في الإسلام أيضاً ذكراً لحروف هجائية أخرى، مثل قول الراجز: ناقلاً صورة مشوهة للكتابة، ومشبهاً الأطلال بها، ذاكراً بعض الحروف أيضاً:

تَخَالَ مِنْهُ الْأَرْزُومَ الرَّوَّاسِمَا كَافًا وَمِيمِينَ وَسِينًا وَطَّاسِمَا

وقول الراعي أيضاً:

أَشَاقِشَكَ آيَاتِ أَبَانَ قَدِيمُهَا كَمَا بَيَّنَّتْ كَافٌ تَلُوحٌ وَمِيمُهَا^(٤)

وقال جرير في مثل هذا التشبيه:

حَيِّ الدِّيَارِ كَوُحِي الكَافِ وَالْمِيمِ مَا حَظَّكَ اليَوْمَ مِنْهَا غَيْرُ تَسْلِيمِ^(٥)

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

(٣) التاج، «ميم».

(٤) ديوانه، تحقيق رابشهوت فايبرت ص ٢٥٨.

(٥) ديوانه، ص ٤٨٨. وانظر ذكر (الألف واللام)، ص ٣٨٦.

ووفقاً لتلك الإشارات السابقة، فإن هذه الحروف اتخذت شكلاً
نمطياً، يعكس موروثاً ثقافياً مشتركاً قديماً، إنه هنا تأثير الكتابة عند
أهل الكتاب، لا سيما اليهود، وهذا واضح في قول جرير نفسه، مبيناً
جنس ذلك الكاتب وتلك الكتابة والعلاقة بينها في قوله:

كَأَنَّ أَخَا الْيَهُودِ يَخُطُّ وَخِيَاءً بِكَافٍ فِي مَنَازِلِهَا وَلَا مَ (١)
وقال المرار بن منقذ العدوي، الشاعر الأموي:

وَتَرَى مِنْهَا رُسُومًا قَدْ عَفَتْ مِثْلَ خَطِّ اللَّامِ فِي وَخِي الرُّزْنِ (٢)

وهو واضح كذلك من قول أبي حية النميري، الذي جعل كتابة
اليهود بعضها متقارب، وبعضها متباين؛ لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة
والحال، مما يدل على تصورهم لكتابة اليهود:

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفٍّ يَوْمًا يَهُودِيٌّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ (٣)
وقال عمرو بن لجأ، ناقلاً صورة قديمة للأطلال والكتابة:

مَحَاهَا الْبِلَى لِلْحَوْلِ حَتَّى تَنْكَرَتْ كَأَنَّ عَلَيْنَهَا رَقٌّ نِقْشِ يَزِيئِهَا
كِتَابٌ يَدٍ مِنْ حَاذِقٍ مُتَنَطِّسٍ بِمَسْطُورَةٍ مِنْهُنَّ ذَالٌ وَسِيئِهَا (٤)

وهناك شواهد كثيرة على هذا التأثير في خيال شعراء هذا
العصر، فقد ظل هذا التصور حتى الفترة الأموية، حيث نلاحظ تكرار
ذكر علماء اليهود، كما قال القتال الكلابي:

تُنِيرُ وَتُسْدِي الرِّيحُ فِي عَرَصَاتِهَا كَمَا تَمْنَمُ الْفِرْطَاسُ بِالْقَلَمِ الْحَبْرُ (٥)

(١) المصدر نفسه، ص ٤٩٨.

(٢) الأثباري، شرح المفضليات، ص ١٥٤.

(٣) القرطبي، الجامع، م ٤، ج ٧، ص ٩٣.

(٤) شعره، ص ١٢٩.

(٥) ديوانه، ص ٤٩.

وقال البعيث:

فَصَارَةً فَالْقَوَيْنِ لَأَيًّا عَرَفْتُهُ كَمَا عَرَضَ الْحَبْرُ الْكِتَابَ الْمُرْقَمًا^(١)

وقال جرير:

بَيْنَ الْمُخَيَّبِ وَالْعَرَافِ مَنْزِلَةٌ كَالْوَحْيِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى فِي الْقَرَّاطِيِّسِ^(٢)

وقال:

وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا بِجَلَّاجِلٍ وَخِي الرُّبُورِ تُجِدُّهُ الْأَحْبَارُ^(٣)

وقد بين ذو الرمة أن اليهود، هم الذين كانوا يمارسون الكتابة،

فقال:

كَأَنَّ قَرًا جَزَعَائِيهَا رَجَعَتْ بِهِ يَهُودِيَّةُ الْأَقْلَامِ وَخِي الرَّسَائِلِ^(٤)

التأثير النصراني

وقال الحسين بن مطير، ذاكراً أن رهبان النصارى كانوا أيضاً

ممن مارس الكتاب في الجزيرة العربية، وتدلل قلة الإشارات إلى

النصارى الكتاب، على ندرتها بينهم:

وَبِالْبُزْقِ أَطْلَالَ كَأَنَّ رُسُومَهَا قَرَّاطِيْسُ رُهْبَانٍ تَلُوحُ سَطُورُهَا^(٥)

وقال جرير، موضحاً أن كتب الرهبان قديمة أيضاً، فقال:

كَأَنَّ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ قَدَمِ الْبِلَى قَرَّاطِيْسُ رُهْبَانٍ أَحَالَتْ سَطُورُهَا^(٦)

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج٣، ص ٨٢٢. صارة والقوين: موضعان.

(٢) ديوانه، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٤) ديوانه، ج٢، ص ١٣٣٤. القرا: الظهر. الجرعاء: الرملة الطيبة المنبت، لا

وعوثة فيها. رجعت: رددت خطوطها. الوحي: الكتاب. وانظر، الأصبهاني،

النتيبه على حدوث التصحيف، ص ١٦.

(٥) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ج٢، ص ٥٦٢.

(٦) ديوانه، ص ٢٦٦.

غموض بعض الصور النمطية

وقع بعض اللبس في فهم بعض الإشارات، في شعر بعض الشعراء الإسلاميين ومن ذلك قول ابن أحرر:

وَلِلشَّيْخِ تَبْكِيهِ رُسُومٌ كَأَنَّهَا تَرَاوَحُهَا الْعَصْرَيْنِ أَرْوَاحُ مَنَدِدٍ
تَمَائِيلُ قِرطَاسٍ عَلَى هَبْنَهَيْبَةٍ نَضًا الْكُورُ عَنْ لَحْمٍ لَهَا مُتَخَدِّدٌ

وذلك حسبما ذهب إليه محقق الديوان من أن التماثيل بمعنى الكتب^(١)، وقد يقال، من جهة أخرى، إن التماثيل لا تخرج عن مدلولها الحقيقي، وهو الرسوم والتصاویر على جلود تُزَيَّنُ الرّحل. ولا تخرج هذه الصورة عن تلك التي رسمها الطرماح في قوله يصف الرّحل:

بِذِي ذُئْبٍ يَسْتَوْسُ بِجَانِبَيْهِ عَشَاكِلُ مِنْ أَكَالِيلِ الْعُفُوهِ

فهو يقول عن أحناء الرّحل من مقدمه: أن ما علق عليه من عهن أو صوف أو زينة يتأرجح في الهواء، والعهن هو الصوف المصبوغ ألواناً يعلق على جانبي الرّحل والهودج للزينة^(٢)، وتجتمع

(١) شعره، ص ٥٠.

تراوحها: تناوب الهبوب عليها. أرواح: جمع ربح. مندد: واد باليمن كثير الرياح شديدها. نضا: كبر واتسع. الكور: خشب الرّحل. متخدد: هزيل ضامر ناقص.

(٢) ديوانه، ص ٥٣٠. ولعل من ذلك قول علقمة:

عَقْمًا وَرَقْمًا يَكَادُ الطَّيْرُ يَنْتَبِعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجْوَابِ مَذْمُومٌ

العقم: ضرب من الوشي الأحمر، وهو ثوب أحمر يجلل به الهودج.

الزبيدي، الناج، «عقم». وقول زهير:

عَلَوْنَ بِأَسْمَاطِ عَنَاقٍ وَكَلْبَةٍ وَزَادَ حَوَاشِيَهَا مُشَاكِبَةَ الدَّمِ

شرح شعره، ص ١٩، ومثلهما أيضاً قول الآخر مشيراً إلى الزخارف على

الهودج:

تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا وَالرَّجَائِزَ زِينَةً بِأَسْمَاقِهَا مَغْفُودَةً كَالْعَشَاكِلِ

الناج، «عشكال». وعلى العموم، فمن معاني القرطاس، الأديم؛ اللسان،

«قرطس».

اللفظتان «ههبية» وهي الناقة التي تتحرك بسرعة كالريح الهبوب، في قول ابن أحرر؛ و«ينوس» يتحرك متذبذباً في قول الطرماح على تأكيد كون تلك «التمائيل» عند ابن أحرر هي «أكاليل» عند الطرماح، وليست هي الكتب.

ونتبين سوء الفهم في بعض الصور القديمة من شرح محققي شعر الراعي، قوله:

يَزُرُّ أَكْفَالَهَا غَيْرَانُ مُبْتَرِكُ كَاللُّوحِ جُرْدَ دَفْأهِ مِنَ الزُّبْرِ
فقالا: «الزبرة: الشعرة، وجمعها زبر: الشعر المجتمع، وقيل: زبرة الأسد، الشعر على كاهله، وقيل: الزبرة موضع الكاهل على الكتفين»^(١).

والصورة لا تحتمل هذا الشرح اللغوي، وإنما هي تشبيه احتكاك الفحل بعجز الناقة، باللوح الذي يكتب عليه، وقد جرد، حُكَّ، من الكتابة، أي كتابة الزبور.

(١) شعر الراعي، ص ١٠٩.

الفصل الخامس

حماد الراوية والتدوين

كتاب الأنصار

أما ما يقال عن عثور حماد الراوية على كتاب للأنصار، فإن الخبر نفسه يفصح عن طبيعته، إذ يقول:

«كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر، وصحب الصعاليك واللبصير، فنقب ليلة على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس، ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ»^(١).

فالخبر لم يأت إلا لتفسير ذلك التوجه الذي دفع برجل غير عربي، إلى طلب علم العرب، حتى «بلغ في العلم ما بلغ».

ومع هذا، فليس هناك ما يحول دون وجود مُدَوِّنات محدودة، قد تكون سابقة على هذا العصر الذي برز فيه حماد (ولد سنة ٧٥هـ). أي العصر الأموي، ولعل شعر الأنصار يُعدّ الأنموذج المرحلي من نماذج بدايات التدوين، مع ملاحظة صغر حجم هذه المدونات، فهو كما جاء في الخبر: «جزء من شعر الأنصار»، فليس هو حتى كتاب، وإنما هو جزء من كتاب، كما هو متوقع من طبيعة التدوين ومادته في

(١) الأغاني، ج٦، ص ٢٣.

المراحل الأولى من قيام الدولة الإسلامية. ولعل هذا الجزء يشبه إلى حد بعيد، ذلك «الكتاب»، الذي وُجدت فيه أبيات أبي جلدة.

كتب قريش وثقيف وبلي... إلخ

وهناك خبر آخر أورده أبو الفرج يتصل بحماد، يقول فيه حماد:

«أرسل إليّ الوليد بن يزيد... فقلت: لا يسألني إلا عن طرفية: قريش وثقيف»^(١).

وهنا نكون قد قطعنا شوطاً أبعد من ذي قبل، فنحن هنا أمام «كتاب»، بل «كتابي قريش وثقيف»، مع التنبه إلى أن حماداً كان يقول هذا، في عصر الوليد بن يزيد (١٢٥هـ - ١٢٦هـ)، أي بعد أن قطعت الكتابة، منذ أن جاء الإسلام، قرناً وربع قرن، وفي ظل دولة نشطت فيها الحركة الثقافية الأدبية، وأقبل الناس فيها على التعليم. وعضواً عن أن يكون لنا في هذا العصر: «جزء من شعر»، أصبح لدينا: «كتاب قريش»، و«كتاب ثقيف»، و«كتاب بلي»... إلخ.

كتاب حماد

أما الخبر الذي أورده ابن النديم، وهو:

«جمع ديوان العرب، وأشعارها، وأخبارها، وأنسابها، ولغاتها، الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ورد الديوان إلى حماد وجناد»^(٢).

فهو موضع نظر، لأنه يحتمل عدة توجيهات، فهو يقول: «جمع الوليد... ورد الكتاب إلى حماد وجناد»، مما يشير إلى عدة أمور:

(١) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٣. ونحن نتحفظ في قبول تدوين عبيد بن شربة، الذي احتج به الأسد، مصادر، ص ١٥٩. إذ يتعارض هذا مع قبول نوع من التدوين الذي توسع فيه فيما بعد.

- ١ - أن الوليد بن يزيد (ت ١٢٦هـ)، هو الذي جمع الكتاب.
- ٢ - أن الوليد استعار الكتاب من حماد وجناد، ثم رده إليهما، فهو مَن عَمَلَهُمَا.
- ٣ - أن حماداً وجناداً اجتمعا علي امتلاك الكتاب.

فإذا كان الأمر الأول، فهو احتمال وارد إلى حد ما، ولكن ما علاقة حماد وجناد بإيداع الكتاب لديهما، وهو الذي يستقدم حماداً لإنشاده، ويطلب منه الاستماع إلى محفوظه مفاجأة، دون سابق إعداد واستعداد؟!

ومهما تكن التناقضات في هذا الخبر، فإنه يثبت أن هناك كتاباً يحتوي على أشعار العرب، ولعله يكون أكبر حجماً من كتاب قريش أو ثقيف مثلاً، وربما كان ذلك بتشجيع من السلطات الرسمية، مثلما كان خالد بن الهجاج يكتب الشعر وغيره، بإيعاز من الخليفة الوليد بن عبد الملك...^(١)

وربما فسّر هذا الخبر ما قاله ابن سلام:

«جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية»^(٢)، فجملة «جمع»، تعني «روى». ولعل ابن النديم استقى الخبر من ابن سلام، ثم أضاف إليه ما استجد لديه من معلومات. وأياً كان الأمر، فإن هذا يقدم دعماً للخبر السابق، بانشغال رجل محب للشعر بتدوين الشعر وجمعه.

ثم إنَّ مما تجدر الإشارة إليه أن حماداً كان يعتمد على الذاكرة، ولذلك أطلق عليه لقب: «الراوية»، لسعة حفظه. وفي الخبر السابق ما يؤكد ذلك، إذ قال: «سألني عن أشعار بلي»، فهو لم ينظر في تلك

(١) المصدر نفسه، ص ٩ - ١٠.

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص ٤٠.

اللحظة في «كتاب بلي»، وإنما أنشده من محفوظه. وفيما عدا هذه الحالة التي ذُكر فيها الكتاب، فإن حماداً كان دائماً يقف باعتزاز لينشد من ذاكرته، حتى لو كان الأمر أمر مفاجأة^(١).

(١) انظر على سبيل المثال، الأصفهان، الأغاني، ج٦، ص١١٩.

وتساءل الأسد، مصادر، ص١٥٧، عن العبارة التي أوردها ابن النديم، الفهرست، ص١٠٤: «ولم نر لحماد كتاباً، وإنما روى الناس عنه، وصنفت الكتب بعده»، فقال: «ولذلك كان عجباً أن يقول ابن النديم: «ولم نر...»، واستشهد على ذلك بأبي حاتم السجستاني الذي ذكر أنه نظر في كتاب حماد.

وهذه بعض إيهامات الأسد، لأن حماداً، حقاً، لم يترك كتاباً، وإنما كان يُملئ إملأته الخاصة به، وكان الهيثم بن عدي صاحبه وراوته، انظر الأغاني، ج٦، ص٦٨. ولقد قام تلامذة حماد من بعده، فجمعوا إملأته في الكتاب المعروف بـ «كتاب حماد الراوية». أما الكتب التي كانت بحوزته، زمن الوليد بن عبد الملك، فلعل عوادي الزمن عدت عليها نتيجة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بعد مجيء الدولة العباسية، خاصة أنها، فيما يبدو، كانت نسخاً يتيمة، وإضافة إلى ذلك، فلعل حماداً كان يستظهرها حفظاً، ثم يرويها بدلاً من قراءتها، ومهما يكن، فعبارة ابن النديم لا تتوجه إلا للكتاب المعروف عنه، والذي قلنا إنه لم يدونه، بل دونه تلامذته من بعده.

وانظر كتاب: «حماد الراوية بين الوهم والحقيقة».

الفصل السادس مفهوم الكتاب

لفظة «الكتاب»

إذا تجاوزنا عن كل ما مضى، فسنجد أن الشاعر الجاهلي كان يورد ذكر الكتابة أو أدواتها أو لفظة «الكتاب»... إلخ، من غير أن نتبين ممارسته الحقة للكتابة، أو استعانته بسواه لكتابة شعره. ولعلنا نجد مصداق ذلك في القول الذي يُستدل به على أنه شاهد على وجود كتاب عند الجاهليين، وهو قول معقل بن خويلد:

وَإِنِّي كَمَا قَالَ مُنْزِلِي الْكِتَابِ فِي الرَّقِّ إِذْ خَطَّهَ الْكَاتِبُ
يَرَى الشَّاهِدُ الْحَاضِرُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ^(١)

فهو يذكر الكتابة فعلاً، ولكنه لا يحددها، وهو إنما يذكر قولاً، ولا يذكر كتابة شعر، كما أنه لا يعني كتاباً بعينه، إذ لا يتصور أن يحتفظ بكتاب من رق في فترة جاهلية معروفة أوضاعها الاجتماعية، فهو إذن رق واحد، وليس كتاباً كما قد نفهم. وعلى هذا النحو يمكن أن نوجه قول بشر بن أبي خازم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقَّ الْخَيْلِ بِالرُّكُضِ الْمُعَارِ^(٢)

الذي يظن من يظن أنه يعني (الكتاب) بعينه، وأنه كانت هناك

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، مج ١، ص ٩٢.

(٢) شرح المفضليات، ص ٦٧٦.

كتب لقريش، وثقيف وتميم^(١)، فهو لا يعدو المعنى المجازي للكتاب، أي الأخبار والأقوال الشفوية. كما سيتضح لنا بعد حين.

وانطلاقاً من ذلك، فإنه إذا تشبنا بأن الكتاب في قول بشر بن أبي خازم السابق «كتاب بني تميم»، هو الكتاب بعينه، وأن معنى البيت كما قال المبرد: «وجدوا هذه اللفظة مكتوبة»^(٢) رغم أن هناك رواية أخرى تنسب الكتاب إلى غير تميم أيضاً^(٣)، وكلتا القبيلتين بدوية، فإننا في المقابل نفترض أن المادة التي تكوّن منها ذلك الكتاب محدودة، أي إنها لا تستوعب إلا جزءاً يسيراً من الكتابة، أو على تعبير المبرد «هذه اللفظة» وقد تكون مادته على سبيل المثال مادة المهرق: أي قماش أبيض يصقل ويكتب فيه الكتب والعهود، وما أرادوا إبقاءه على الدهر^(٤)، أي إنه لا يحتوي إلا على أمثال العهود والمواثيق، أي: النثر، وليس الشعر، أي إنه نوع من أنواع الكتابة الرسمية الموجزة. وهو رأي أكده الجاحظ قبل ذلك حين قال:

«والمهراق ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب: مهراق، حتى تكون كتب دين. أو كتب عهود وميثاق وأمان»^(٥).

ويضاف إلى هذا استخدام الكتابة في الأغراض اليومية والتجارية، كما هو الحال في مكة والحجاز بشكل عام، أو الأحوال الخاصة، كما مر بنا من كتابة الفزاري إلى قومه، يحذرهم من غزو الملك.

وعلى هذا الأساس يمكن قبول كون الجاهليين قد دونوا شيئاً

(١) الجندي، تاريخ الأدب، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) المبرد، الكامل، ج ٢، ص ٥٣.

(٣) التاج، «غير».

(٤) المرزوقي، شرح الحماسة، مج ٤، ص ١٧٤٥.

(٥) الجاحظ، الحيوان، مج ١، ص ٧٠، وانظر: التاج، «هرق»، «صك».

من الأمثال^(١) حسب توجيه بيتي معقل بن خويلد السابقين، وحسب توجيه بيت بشر وهو ما قد يتفق مع كيفية الكتابة في ذلك العصر، كما هو واضح. ومع ذلك فإننا ما زلنا نميل إلى أن «الكتاب» - حتى حسب مفهوم بشر بن أبي خازم ومعقل بن أبي خويلد في البيتين اللذين قد يشيران إلى «المثل» - لا يعدو المعنى المجازي للكتاب، أي: المآثر والأمجاد، وليس أدل على هذا المعنى من قول الفرزدق، مستخدماً كلمة «كتاب»؛ وهو يعني به تلك المعاني نفسها حيث ورث مجد الشعر الذين خلّفه الشعراء الذين ذكرهم. فقال:

وَالْجَفْقَرِيُّ وَكَانَ بِشَرِّ قَبْلَهُ لِي مِنْ قَصَائِدِهِ الْكِتَابُ الْمُجْمَلُ

ويعني بالجعفري، لبيداً، ثم قال ذاكراً «الكتاب» أيضاً:

دَفَعُوا إِلَيَّ كِتَابَهُنَّ وَصِيَّةً فَوَرِثْتُهُنَّ كَأَنَّهُنَّ الْجَنْدَلُ^(٢)

وهنا لن نسمح لخيالنا بالجموح، فنفسر «الكتاب» بغير هذا التفسير، فتصور أنه كانت بين يدي الفرزدق مجموعات شعرية لشعراء جاهليين، أو نسخ من دواوينهم^(٣). بل إن ذكر دغفل النسابة، وذكر الصحيفة كذلك، لا يعينان إلا ذلك الفخر بالأمجاد والأنساب في قوله:

أَوْصَى عَشِيَّةً حِينَ فَارَقَ رَهْطَهُ عِنْدَ الشَّهَادَةِ فِي الصَّحِيفَةِ دَغْفَلُ

هذا على تصور كتابة الوصية في الإسلام في صحيفة، أي إن

(١) زلهاميم، الأمثال العربية القديمة، ص ٤٤، ٦٤.

(٢) ديوانه، ج٢، ص ١٥٩ - ١٦٠؛ وانظر: القصيدة ص ١٥٥ - ١٦١.

(٣) الأسد، مصادر، ص ١٦٠؛ وانظر: ص ٢٦٣، بل لقد غالى الأسد في رأيه حين زعم أن قول معقل بن خويلد السابق: «واني كما قال مملي الكتاب...» يعني: «أن هذا الشاعر قد قرأ بيته الثاني بهذه الألفاظ...» في كتاب من كتب الشعر أو الأخبار الجاهلية ثم اقتبسها وضمنه قصيدته، ص ١٦٣.

استخدامها هنا لا يخرج عن الاستخدام المجازي الذي عرفناه سابقاً. ويدل على أن ما خلفه أولئك الشعراء كان موروثاً شفهيّاً، وليس مكتوباً، قوله في بداية تعدادهم:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَزُولُ

فهو قد ورث ما خلفوه من شعر مروى، وليس مكتوباً اختصاصه به، أي إنه ذو القِدْحُ المُعَلَّى في الشعر، وليس جريراً أو غيره، ممن يراهم دونه؛ فهم قد أوصوا له بالشعر، فكتبوا له وصيته، ودفعوها إليه. وهناك فرق كبير بين «الوصية» و«الكتاب». وفي جمع هؤلاء الشعراء في «وصية» واحدة وليس «وصايا»، دليل آخر على النقل الشفهي، والمعنى المجازي للكتاب، بل للوصية نفسها التي تعني وهنا: القول المنقول. والفرزدق كما هو واضح يفتخر بأن كل هؤلاء الشعراء تركوا له تلك الآثار، ولكن هذا لا يعني أن شيئاً من الأنساب أصبح يُكتب في هذا الوقت، فهذا الفرزدق يمضي مع كاتبه ابن مَتْوِيه إلى بني الرباب ليكتب عنهم مثالب بني جعفر بن كلاب، ثم يضمها قصيدته التي يقول فيها:

وَبُنْتُ ذَا الْأَهْدَامِ يَغْوِي وَدُونَهُ مِنْ الشَّامِ زُرَاعَاتُهَا وَقُصُورُهَا^(١)

أما كتابة الوصية في هذا العصر، وكما يقول: الكلمة نفسها، فنجد في قول الفرزدق نفسه لابنه لبطّة: «ابغني كتاباً أكتب فيه وصيتي! فاتيتك بكتاب، فكتب وصيته: أروني من يقوم لكم مقامي»^(٢). وهو اتجاه أصبح معروفاً، وتؤيده الدلائل الثابتة، مما يحتمل كتابة الشعر وغيره في هذه الفترة، كما مر بنا.

(١) أبو عبيدة، نقائض، ج ٢، ص ٩٠٨. وانظر القصيدة في ديوان الفرزدق، ج ١، ص ص ٣٦٢ - ٣٧٠. وعدد أبياتها ٩٢ بيتاً.

(٢) الأغاني، ج ٢، ص ٤٠٩.

وإذا عدنا مرة أخرى، لبيت معقل بن خويلد، فإننا لا نرى فيه إشكالاً على الإطلاق، إنه لا ينقل ما في الكتاب، بل ينقل حديث الكاتب الشخصي، في معزل عن قيامه بالكتابة، وما هو مكتوب في الأصل؛ أي: قال مملي الكتاب، يرى الشاهد...، وهو يكتب ما يهّم بكتابته. وفي مثل هذا يقول حسان بن ثابت:

حَدَّثَ الشَّاهِدُ مِنْ قَوْلِهِ بِأَلْيَدِي يُخْفِي لَنَا الْغَائِبُ^(١)

إِذَا مَا الْأَمْرُ جَلَّ عَنِ الْخِطَابِ

بِأَيْدِيكُمْ عَلَيَّ مِنَ الشَّرَابِ

= أَرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي

وبعد البيت آخر هو:

إِلَى مَنْ تَفَرَّغُونَ إِذَا حَكَمْتُمْ

ديوان الفرزدق: ج ١، ص ٩٥.

(١) ديوانه، ج ١، ص ٢٨٢.

الفصل السابع

آراء القدماء

ابن سلام

وبعد، فهذا ابن سلام يقول عن العرب:
«لم يؤلوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب»^(١).

الجاحظ

وهذا الجاحظ عندما تحدث عن الكتابة، لم يشر إلى الكتابة عند العرب، بل قال:

«العرب أوعى لما تسمع، وأحفظ لما تأتي، ولها أشعار تقيد عليها مآثرها، وتخلد لها محاسنها، وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها»^(٢).

ويقول كذلك:

«وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها»^(٣).

(١) ابن سلام، طبقات، ص ٢٢ ولكن الأسد في مصادره، ص ٦٢٧، يتجراً، فيقول عن هذا القول: «باطل»، ويقول عنه كذلك: «الباطل الذي لم يعد نشك في بطلانه وفساده» وكل ذلك دفعاً لرفض كتابة الشعر في العصر الجاهلي وتدوينه، ولو عاد الأسد إلى نفسه، ولم يندفع وراء عواطفه، لاستمع إلى ابن سلام، ورضى بكلام الجاحظ، واقتنع برأي ابن حزم، وسلم بحكم ابن منظور.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص ٣٦٦.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ٧٢.

وقال أيضاً:

«تقييد المآثر، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب، ونحن نرتبطها بالشعر المقفى، ونصلها بحفظ الأميين، الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة، والخطوط المطرسة»^(١).

وقال حمزة الأصبهاني عن الكتابة العربية بعد أن بين أن الكتابة العربية حديثة العهد، تعود إلى فترة حرب بن أبي سفيان، جد معاوية: «فحدوث الكتابة للعرب قبل الإسلام صحيح، يؤيده حدوث آلات أخرى لهم، لم تكن من قبل منها: الخطابة والبلاغة وقول الشعر، فإن هذه الأشياء كلها قريبة من ميلاد إقبال دولتهم، وقد كانوا غبروا بباديتهم الدهر الأطول، وهم أميون لا يقرؤون، ولا يكتبون»^(٢).

ابن حزم

وقال ابن حزم:

«لم يكن للعرب كتاب؛ وإنما بقي من أشعارها شعرٌ من أدرك رواته الإسلام فقط»^(٣).

وفي كل هذا الدليل الحاسم على مجمل ما ذهبنا إليه، وهو أن العرب لم تستعمل الكتابة في الشعر ألبتة. وإنما كانوا يعتمدون على الرواية الشفوية فقط، ولولا الإسلام، لما وصل إلينا حتى أقل القليل مما خلفته الجاهلية، ولخضع شعر الشعراء المشاهير، في العصور اللاحقة - أمثال الأخطل والفرزدق وجريير وذو الرمة - لما خضع له شعر أجدادهم من عظماء الشعراء والمبرزين منهم.

(١) الجاحظ، رسائل، «مناقب الترك»، ج٢، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) الأصبهاني، التنبية، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٥٦.

ابن خلدون

ويمكن تلخيص كل هذا الجدل في قول ابن خلدون:

«إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم
البداءة والامية»^(١).

ابن منظور

ونختتم هذه القضية بقول ابن منظور، وإن كان فيه تعميم، لكنه
على الأقل، ينطبق على ما نذهب إليه في نفي كتابة الشعر:

«قيل للعرب: الأميين، لأن الكتابة فيهم عزيزة أو عديمة».

وقوله:

«أمة العرب لم تكن تكتب، ولا تقرأ المكتوب»^(٢).

كما قال: إن معنى الكاتب هو العالم، وأنه نادر بين العرب،
وذكر عن رسالة للنبي ﷺ جاء فيها ذكر الكاتب:

«وفي كتابه إلى أهل اليمن: قد بعثت إليكم كاتباً من أصحابي،
أراد عالماً، سمي به، لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن
عنده العلم والمعركة، وكان الكاتب عندهم عزيزاً، وفيهم قليلاً»^(٣).

وقد عرف بهاء الدين العاملي الأمي بأنه «من لا يكتب، منسوب
إلى أمة العرب، المشهورين بعدم الخط والكتابة»^(٤).

(١) المقدمة، ص ٤٣٩.

(٢) اللسان، «أمم».

(٣) المصدر نفسه، كتب.

(٤) الكشكول، ج ٢ ص ٣٩٣.

وانظر، ابن عاشور، تفسير التحرير، ج ٢٨، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

الفصل الثامن الاتجاه العام المعاصر حول كتابة الشعر

آراء العلماء المعاصرين
ونخلص بعدئذ إلى اتفاق مع اتجاه الرأي العلمي المعاصر عند
بعض العلماء، ممن يتحفظون في كتابة الشعر في العصر الجاهلي،
مثل:

المسلوت

الذي يقول: «نجزم بأن هؤلاء لم يعرفوا الكتابة ولم يتخذوها
أداة لحفظ الشعر والإبقاء عليه»^(١).

الزبيدي

الذي يقول: «ومما يؤكد أن نظم الشعر وروايته قبل الإسلام كانا
قد قاما على المشافهة دون الكتابة هو أن الخطوط التي عرفها العرب
آنذاك لم تكن تصلح لتدوين الشعر»^(٢).

السامرائي

يقول السامرائي في إشارته إلى ناصر الدين الأسد:

(١) المسلوت، نظرية، ص ١٦.

(٢) الزبيدي، مقدمة، ص ٤٩، وقد سبق لبلاشير أن قرر أن طريقة النظم عند
الشاعر الجاهلي هي طريقة الرواية الشفوية، لا الكتابة. تاريخ الأدب العربي،
ص ص ٩٣ - ٩٩.

«لقد اعتمد الدكتور على أبيات ما أظنها توصله إلى شيء من هذه الحدود الفنية»^(١).

عبد الرحمن محمد

وهو يقول عنه كذلك:

«انطلق مثل غيره من الدارسين المحدثين... من نفس المنطلق الذي يؤمن بفكرة مسبقة يحشد لتأييدها نصوصاً وروايات يتعسف في تأويلها ويقسرها قسراً على مفهوم بعينه، ويؤسس على الخبر المفرد قاعدة عامة لا يحتملها الخبر نفسه ولا تبررها طبيعة الحياة القديمة»^(٢).

الكتابة الدينية

تقول نايبا آبوت:

«تقبل الكاتبة لبعض الأسباب احتمالية أن الكتابة العربية كانت مستعملة في الأعمال الأدبية في عصور ما قبل الإسلام، خاصة بين العرب والنصارى في العراق وسورية، وعند المستوطنين المسيحيين واليهود الذين تحدثوا اللغة العربية في الجزيرة العربية نفسها»^(٣). وحتى لا يفهم من قولها: «الأعمال الأدبية»، الشعر، بينت أنها تقصد النشر، وبالذات الأعمال الدينية. وقد أشارت إلى «مجلة لقمان»، وقراءة سويد بن الصامت لها أمام الرسول ﷺ، كما أشارت إلى ورقة بن نوفل^(٤). وعلى العموم، فقد قالت:

(١) «العربية والكتابة»، ص ٦٧.

(٢) الشعر الجاهلي، ص ١٤٤. مع الأسف، فإن إبراهيم عبد الرحمن نفسه، طرح هذا الرأي، ولم يُفصل فيه.

(٣) *Studies in Arabic Papyria*, p.501.

(٤) *Ibid*, PP.5-6

«ومع ذلك، فإنه يبدو حتى من العرض القصير السابق أن أدب النثر الديني المكتوب باللغة العربية لم يكن بأية حال من الأحوال غريباً عن العرب قبل مجيء الإسلام»^(١).

وهذا ما يذهب إليه أيضاً عرفان شهيد، فيما يتعلق بنصاري نجران^(٢). كما يذهب جواد علي إلى أن التوراة كانت قد ترجمت إلى اللغة العربية^(٣). ويمكن أن يضاف إلى أدب النثر الديني ما روي من أن وهب بن منبه قال: «قرأت من كتاب الله اثنين وتسعين كتاباً»^(٤). وما روي من أن أمية بن أبي الصلت: «كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جل وعز»^(٥). والذي كان مستعملاً للسريانية كثيراً، لأنه كان قد قرأ الكتب^(٦).

وقول النابغة وهو يتحدث عن كتاب ديني للغساسنة - حسب رواية «مجلتهم» بدلاً من «محلثهم»:

مَجَلَّتْهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوْمٍ فَمَا يَزْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ^(٧)

(١) Ibid, p.6.

(٢) Shahid, *The Martyrs of Najran: pp.10, 40, 62, 96-98, and esp. 242-50.*

علمًا بأن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم، فكلما مات رئيس منهم، فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتماً... ابن هشام السيرة، ج٢، ص ٢٢٣، مما يدل على أن الكتب التي يتوارثونها قديمة العهد، أي: إنها كتب بلغة غير اللغة العربية، وليس كما يذهب إليه عرفان شهيد.

(٣) جواد علي، المفصل، ج٦، ص ٢٧٨.

(٤) الحميري، منتخبات في أخبار اليمن، ص ١١٥. وقد قيل إن فاطمة بنت مر الخثعمية بمكة كانت قد قرأت الكتب؛ المفضل بن سلمة، الفاخر، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مج ١، ص ٤٥٩. وانظر عن ورقة بن نوفل: البغدادي، خزنة الأدب، ج ٣، ص ٣٩١ - ٣٩٤.

(٦) الجواليقي، المعرب، ص ٣٨٣.

(٧) ديوانه، تحقيق ابن عاشور، ص ٤٩.

ولكن، رغم ذلك، فإني أرى أنه حتى هذه الكتب، لم تكن باللغة العربية، وأن من يزعم القراءة منها كان ينقل أفكارها ويترجمها إلى اللغة العربية. أما لغة هذه الكتب، فهي إن كانت مسيحية، فهي السريانية^(١)، وهو ما ذهب إليه لويس شيخو - وإن فهم أن قول بشر بن أبي خازم السابق (وجدنا في كتاب بني تميم) يعني الكتاب بعينه. ولكنه ليس كتاباً باللغة العربية، فقال:

«ومن المرويات العديدة التي نقلها أول كتبة الإسلام على علاتها فأثبتوها بأسانيدها إلى بعض أهل الكتاب من نصارى ويهود... يظهر أنه شاعت في جزيرة العرب مصنفات شتى معظمها لبعض المبتدعين أو لكتبة مجهولين... وقد بقي منها أشياء في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره، وفيها الغث والسمين. ومن هذه التأليف ما ورد ذكره في الشعر القديم ولا يعلم من أمره شيء كقول بشر بن أبي خازم، وقيل الطرماح، في كتاب بني تميم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقَّ الْخَيْلِ بِالرُّكُضِ الْمَعَارِ

وكانت بعض هذه التأليف مكتوبة بالسريانية والحشية فوقف على مضامينها العرب ونقلوا أشياء منها خصوصاً من كتاب «مغارة الكنوز»^(٢).

أما إن كانت يهودية، فهي بالعبرانية، وهذا ما يذهب إليه أيضاً محمد الخضر حسين الذي يقول عن التوراة والإنجيل:

«إنهما لم يخرجوا إلى لسان العرب بعد، ولا يقرؤهما إلا من درس العبرية»^(٣).

(١) بهنام، «العلاقات الجوهرية»، ص ٢٣٦.

(٢) شيخو، النصرانية وآدابها، ج ١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٣) الخضر حسين، نقض كتاب، ص ٢١٧.

وقد جاء في صحيح البخاري ما يُصَوَّبُ هذا الرأي، حيث يقول:

«كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام»^(١).

وقد ذُكر أن الإنجيل نفسه كان مكتوباً بالعبرانية، وأن علماء من أمثال ورقة بن نوفل كان يقرؤها بهذه اللغة، فقيل:

«ورقة بن نوفل... كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية»^(٢).

وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه، رداً على اتهام الكفار للنبي ﷺ بتعلم كتب أهل الكتاب: ﴿لَسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]^(٣). وهذا أصدق دليل على أن الكتب التي كانت بين أيدي المعاصرين للرسول ﷺ هي كتب بغير اللغة العربية، سواء أكان ذلك في مكة والمدينة أم في غيرها من الحواضر العربية.

الكتابة الفنية

وأخيراً، فإن وجود أشكال مسرحية وموسيقى ورقص في جنوب الجزيرة العربية عند شعوب الدول التي تعاقبت هناك، مما ظل غير

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج ١٧ ص ١٣.

(٢) البخاري، صحيح، كتاب بدء الوحي، ج ١، ص ٣٨. أما ما جاء في ج ١٨، ص ٢٠١ من أن ورقة بن نوفل: «كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية»، فهو تصحيف للعبرانية بلا شك، كما تبين لنا. وانظر حاشية ص ٣٨.

(٣) القرطبي، الجامع، مج ٥، ج ١٠، ص ١٧٧ - ١٧٨. وقد قيل إن النضر بن الحارث: «اشترى كتب الأعاجم: رستم واسفنديار»، القرطبي، الجامع، مج ٧، ج ١٤، ص ٥٢.

مدون، ومروياً شفويّاً - رغم وجود الكتابة^(١) لديهم - لئلا يدعم الرأي أن أحفادهم، أو جيرانهم العرب الشماليين كانوا على المنوال نفسه.

وإذا لم يثبت حتى الآن أن عرب الجنوب دونوا آثارهم الفنية، فمن المستبعد أن يكون إخوتهم أهل الشمال، الموغلون في البداوة، قد دونوا أشعارهم بلغات غير لغتهم العربية، وهو ما يذهب إليه فؤاد الخطيب، حيث يقول:

«فالمرقش الأكبر كتب شعره بالأحرف السريانية، والغساسنة قد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية والرومية أو السريانية، وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي»^(٢).

وحيث إنه لا دليل على هذا القول عملياً، ورغم ذلك، فلا علاقة لنا بكتابة الشعر بلغة غير اللغة العربية، فالشاعر الجاهلي كان، كما بينا، يشير إلى غربة تلك الكتابة عنه.

الكتابة الرسمية والتجارية

إننا لتتفق مع ما ذهب إليه صلاح الدين المنجد، حينما قال:

«لقد كانوا في الجاهلية يكتبون الديون والأحلاف والهدنة، أي العهود والمواثيق»^(٣).

فالكتابة من هذا النوع واضحة ثابتة في الشعر، حسب بعض التوجيهات، كما في قول الأعشى:

وَلَا الْمَلِكُ الثُّغْمَانُ يَوْمَ لَقِيَهُ
بِغِبْطَتِهِ يُغْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْنِقُ

(١) Petracek, *Quellen und anfangs*, p.385.

(٢) الخطيب، «صلة الجاهلية بالعالم القديم»، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٣) المنجد، تاريخ الخط العربي، ص ٢٣. وانظر إشارة الحارث بن حلزة إلى حلف ذي المجاز، النحاس، شرح القصائد التسع المشهورات، ج ٢، ص ٥٨٠.

وهو يعني بالقطوط: كتب الجوائز^(١). وكما في قول قيس بن الخطيم:

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَأَطْرَادِ الْمَذَاهِبِ لِعِمْرَةَ وَخَشَاءَ غَيْرِ مَوْقِفِ رَاكِبٍ^(٢)

والمذاهب: ألواح مذهبة، وكتب مذهبة، كان يكتب فيها إلى الملوك، ولا يكلمون^(٣)، أو هي: جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها في إثر بعض، فكأنها متتابعة^(٤)، ومنه قول النابغة الذبياني:

وَأَبَدَتْ سِوَارًا عَن وَثُومٍ كَأَنَّهَا بَقِيَّةُ أَلْوَاحٍ عَلَيَّهِنَّ مُذْهَبٌ^(٥)

وقد أشار عارق الطائي إلى العهد الذي كتبه عمرو بن هند إلى طيء، فقال:

فَإِنَّ نِسَاءَ غَيْرِ مَا قَالَ قَائِلٌ غَنِيمَةٌ سُوءٍ وَسَطَهْرٌ مَهَارِقَةٌ^(٦)

ولم تقتصر كتب الجوائز تلك، على القطوط، بل المهارق أيضاً، قال الأعشى:

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً وَإِذَا تُثَوِّدَ فِي الْمَهَارِقِ أَتَشَدَّ^(٧)

وقال عدي بن زيد:

فَأَيْكُمْ لَمْ يَنْلَهُ عُرْفٌ نَائِلِيهِ ذُثْرًا سَوَامًا وَفِي الْأَرْيَافِ أَوْصَارًا^(٨)

(١) القرطبي، الجامع، ج٨، ص ١٥٧.

(٢) الشمشاطي، الأنوار، ص ٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) التاج، «طرد».

(٥) الشمشاطي، الأنوار، ص ٥٢؛ وانظر: ديوان النابغة، ابن عاشور، ص ٥٨.

(٦) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، مج ٤، ص ١٧٤٤؛ وانظر: ج ٣، ص ١٤٤٧، ١٤٦٧.

(٧) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص ٤٠١. وانظر: ديوان الأعشى، ص ٢٢٩.

(٨) التاج، «وصر»، وانظر ديوان عدي، ص ٥٥. الدرر: المال الكثير. السوام =

والوصر: الصك الذي تكتب فيه السجلات، أي إنه أقطعكم كتب السجلات في الأرياف.

وقال الآخر:

رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ وَفِي أَكْوَارِهَا أَلْفَانِ مِنْ عَمِّ الْأَيْبِلِ الْوَاعِدِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِغْتُ بِأَرْكَبِ حَمَلْتُ حَدَائِقَ كَالظَّلَامِ الرَّائِدِ
يصف قوماً زاروا ملكاً، فأقطعهم نخلاً وكتب لهم بها. فلما حملوا الكتب في رحالهم، فكأنهم حملوا النخل^(١).

ومع ذلك، فما لغة هذه الكتب؟ أهي اللغة العربية، أو هي لغة أخرى رسمية؟ إنهم حقاً كتبوا الديون والعهود والأحلاف.. إلخ، مما تقتصر فيه الكتابة على أسطر قليلة معدودة، ولكن إذا شئنا التعميم، فإننا نجد أن أبا ذؤيب أشار في استشهدانا الأول إلى كتابة كاتب حميري ذئبه، في قوله: «عرفت الديار كرقم الدواة...»، أي إن كتابة الديون والعهود والأحلاف، قد تكون بلغة غير اللغة العربية الشمالية، وفي مناطق قليلة محدودة أيضاً؛ ذلك أن الله تعالى يوجه المسلمين إلى كتابة ديونهم، الأمر الذي يعني أنهم - وهم أهل مكة والمدينة - ووقت نزول هذه السورة، في المرحلة، لم يكونوا يفعلون ذلك إلا على قلة وضيق. يقول عز من قائل:

= الإبل الراعية.

وقال طفيل الغنوي يخاطب النعمان بن المنذر في حق سنان بن عائض الضبي:
أَلْجَزَمَ أَمْ جَنَى أَمْ لَمْ تَخْطُوا لَهُ أَمَّا فَيُوجَدُ فِي السِّكِّابِ
ديوانه، ص ٩٠.

(١) الأشنانداني، معاني الشعر، ص ٨٥. العم: العظام الرزوس من النخل.
الأيبل: الموضوع الذي كتب لهم فيه. الواعد: يعد بالخير.

وقال الممزق العبدي في الكفالة:

فَلَا أَنَا مَوْلَاهُمْ وَلَا فِي صَحِيفَةٍ كَفَلْتُ عَلَيْهِمْ وَالْكَفَالَةَ تَعْتَقِي
تعنتي: تجس على الوفاء بما كفل. الأصمعيات، ص ١٦٦.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَدَّيْنُمُ يَدَيْنِ إِلَىٰ أَجْلِ تُسَمَّىٰ فَأَكْتُبُوهُ
وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ...﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسْمُرُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾. ويؤكد الله العظيم ندرة
الكتابة بين العرب، فيقول وهو أعز القائلين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ
تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُوضَةً...﴾ [البقرة: ٢٨٢ - ٢٨٣].

ونختتم هذه الدراسة بقول محمد لطفي جمعة، وهو من أشد
أنصار صحة الشعر الجاهلي، وتأكيدة على شفوية الرواية، وعلى أمية
الجاهليين:

«كانت العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، فكان كل عربي يعلم
بمقدار حفظه ووعيه، فتحمل ذاكرته ما يعرض له من الحوادث
والمعاني، فكان العربي كتاباً يفظاً يسمع ويخزن ويروي، وكانت القبيلة
سجلاً حياً منظوياً على الآثار والأخبار»^(١).

وقد ذهب طه حسين قبله إلى رفض فكرة كتابة الشعر الجاهلي،
فقال: «إن كثيراً جداً من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوباً،
وإنما نقلته الذاكرة»^(٢). كما قال: «بعد أن عبث النسيان والزمان بما
قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة ولا تدوين»^(٣)، ومن ذلك
رفضه فكرة كتابة المعلقات^(٤).

شولر

وأخيراً يقول المستشرق غريغور شولر عن فكرة تدوين الشعر

(١) الشهاب الراسد، ص ٢٥٨؛ وانظر ص ٢٦٩.

(٢) حديث الأربعاء، ج ١، ص ٣١؛ وانظر رأيه في كتابة أبيات لبيد في الإسلام،
ص ٤٢.

(٣) في الأدب الجاهلي، ص ٢٤٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

وجمعه من قبَل الشاعر في العصر العباسي الأول، عصر العلماء
وانتشار الكتابة حقيقة:

«لم تختلف رواية شعر العصر العباسي الأول اختلافاً بيناً عن
رواية الشعر العربي القديم. فبشار وأبو العتاهية وأبو نواس، لم
يجمعوا أشعارهم بأنفسهم، ولم يدونوها، إذ كانوا يعهدون بها أصلاً
إلى الرواة، كما فعل الشعراء القدامى. ولم يصبح ضم الشعر مجموعاً
في ديوان من قبَل الشاعر إلا في حدود ما بعد الألف الأول
الميلادي. وعلى سبيل المثال، فإن ديوان أبي نواس لم يدون إلا بعد
مئة وخمسين سنة من وفاة الشاعر، ورغم ذلك، لدينا روايات متعددة
للدِيوان نفسه^(١).

وذلك إضافة إلى رأي نايبا آبوت الذي مر معنا شيء منه.

وبعد، فما قد وضح لدينا أن الشاعر الجاهلي كان يصف الكتابة
تقليداً ومحاكاة، وأن الظروف الحضارية للشعراء لم تكن مهياًة كي
يتطور فن الكتابة ويتيسر استعماله. أما الخطوط الأخرى، بلغات
أخرى فكانت تفوق قدرة الشاعر. كما كانت مقصورة ومحدودة على
أجواء دينية، واستعمالات خاصة، ومن بين تلك الخطوط الخط
المسند؛ أما النقلة الحضارية الفعلية، فقد كانت بمجيء الإسلام،
حيث صرح الشعراء باستعمالهم للكتابة مباشرة أو غير مباشرة، وقد تم
ذلك العمل تدريجياً وببطء شديد.

وهكذا توصلنا هذه النتائج إلى الحقائق التالية:

(١) Scholler, *Die Anwendung...*, S.232.

وانظر Goldziher, *Some Notes on The Diwans of The Arabes &*
JRAS, pp. 325-334.

أولاً:

مدى الصعوبة التي يواجهها الكاتب، لو حاول أن يكتب القصيدة الجاهلية.

ثانياً:

من الواضح أن الكتابات في مجالات الحياة الأخرى جد قصيرة، مما يدل على المعاناة التي يبذلها الكاتب في كتابتها، وهو أمر لا يساعد على القول بكتابة القصيدة أياً كان حجمها.

ثالثاً:

اقتصرت الكتابات في مجال غير الشعر على حالات خاصة بالحكام والسادة، ولم تكن عامة.

رابعاً:

وهي النقطة المهمة جداً - أن هذه الكتابات كانت على ندرتها، خاصة بالمناطق الحضرية في أطراف الجزيرة العربية (حران، زيد، أم الجمال)، وبالذات في الجزء الشمالي من الجزيرة، وإن استخدمت أيضاً في المدن الحجازية (مكة والطائف والمدينة) للأغراض اليومية والتجارية.

خامساً:

بدأت الكتابة الحقيقية للشعر مع ظهور الإسلام في شكل أبيات محدودة، ومع ذلك، فقد كانت نادرة، وفي حالات خاصة أغلبها رسمي، ثم تطورت شيئاً فشيئاً، حتى وجدنا الشعراء أنفسهم في العصر الأموي يحرصون على كتابة شيء من شعرهم، ومع ذلك، فقد كانت الرواية الشفوية هي الأساس، حتى مع ظهور الشاعر الكاتب في العصر العباسي.

سادساً:

أول كتاب ظهر في اللغة العربية، هو القرآن الكريم، وما سبقه من محاولات ليست إلا حالات خاصة من أدب النثر الديني، وهي حالات رغم ندرتها، ما زالت غير مؤكدة.

سابعاً:

كانت المحاولات الجادة الأولى لكتابة الشعر، في العصر الأموي، بطلب من الشاعر نفسه، ثم جاء دور علماء ذلك الزمان، الذين ربما صنفوا بعض المجاميع الصغيرة، ومع ذلك ظلت الرواية الشفوية هي الأساس حتى العصر العباسي، عندما اندفع العلماء يجمعون الشعر في مجموعات كبيرة.